الفصل الثلاثون

لنتصافح

انهار ريتشارد قلب الأسد بعد معركة يافا بسبب الإعياء، وبسبب نتانة أرض المعركة. ظل جسده يرتعد تارةً من وطأة الحمَّى وطوراً من أدوار البرد التي كانت تصيبه. وقد شخّص أطباؤه حاله على أنه مصاب بالملاريا الثلثية وحذروه من صعوبة التعافي من هذا المرض. لم يكن ريتشارد وحده على هذه الحال. فقد أصبح الهواء مثقلاً برائحة الموت وبالتسمم التومنيني لحد جعل الجنود في المعسكرين يسقطون صرعى.

ومع انتشار الإشاعة حول وشوك «رحيله عن هذا العالم» في المعسكر، أدرك الملك حجم خطورة مرضه. فلطالما كان وجوده وحده كفيلاً بإنقاذ الموقف. فقد كتب مؤرخ الحوليات البريطاني «ريتشارد أوف ديفيز»: «لو علم صلاح الدِّين أن ريتشارد قد مات لكان قذف الفرنسيين بروث البقر ولكان سمّم مدمني الخمر الإنكليز بجرعة كفيلة بجعل فرائصهم ترتعد. لم يعد الآن مستحيلاً على الملك أن ينسحب إذا ما حصل هجوم آخر وحسب، بل إنّ الفرنسيين المشتتين في عكّا أكّدوا مجدداً رفضهم القدوم إلىٰ يافا لمدّ يد العون والمساعدة».

انتقل خبر مرض ريتشارد بسرعة إلىٰ صلاح الدِّين إذ إنه كان قد أرسل أمين ماله أبو بكر عبر الخطوط العسكرية بمهمة، وكان ريتشارد وصورة الموت بادية على محياه قد قدم لاستقباله خارج سور المدينة ليمنع مبعوث السلطان من مشاهدة ما آلت إليه الأحوال في المدينة والضعف الذي أصاب دفاعاتها. فكان من البديهي أن يدور الحديث تلقائياً حول السلام. قال ريتشارد لأبي بكر: «إلىٰ متى سيظل السلطان يرفض عروض التفاهم؟ لقد كنت مشغولاً بالدرجة الأولى بالعودة إلىٰ بلادي. ولكن بما أن فصل الشتاء قد حل وبما أن موسم الأمطار قد ابتدأ فقد قرّرت المكوث حتى أنهي معالجة كل المسائل العالقة بيننا». حمل أَبو بكر هذا التهديد الواهي والمخادع إلىٰ صلاح الدِّين وأعد له تقريراً كاملاً عن عجز ريتشارد. فاستدعى السلطان أمراءه على الفور وقال لهم: «إن الإنكتار قد مرض مرضاً شديداً، والإفرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلّت. وهذا عدوٌ قد مكّن الله منه. وأرى أن نسير إلىٰ يافا، فإنْ وجدْنا فيها طمعاً بلغناه، وإلاّ عُدْنا تحت الليل إلىٰ عسقلان..»[1].

قوبلت الدعوة للحرب هذه بتحية التبجيل المعتادة. ثم تقدم أحد الأمراء أخيراً للكلام بتأنٍ فقال: «لك ما شئت. عليك أن تنفذ ما ارتأيت والقرار الصائب هو الذي تتخذه. فقط ما تقرّه يترسخ وما تثبته يستقر. أيَّدك الله بفضله ونعمته في كل أمر تحلّه أَو تربطه وفي كل ما تمنحه أَو تأخذه. لقد عرفنا معك نعمة الله الذي عاهدت نفسك على الجهاد في سبيله، وعلى تحصيل إبطال الباطل، ونصرة الحق، وعلى أخذ التدابير الضرورية للفوز مترفعاً عن الباطل وماقتاً للتخاذُل. وجدت في نفسك القوة والمثابرة والتماسك وإيمانك الراسخ يجعلك الوحيد الذي سيحقق الأهداف التي نناضل من أجلها».

كانت هذه مقدمةً استثنائيةً لاعتراضٍ لاحق ولكنها تعكس تماماً الأسلوب

(1) ابن شدّاد، ص 231.

المعتمد في الشرق. فصلاح الدين حامي الإيمان مهمته النضالية ذات رهبة، شبه مقدسة مما جعل أمراءه يقدّرون صعوبة موقفه. فقد قال لهم صلاح الدِّين: «إنّ من واجبي بعون الله تعالى أن أسلك أكثر السبل عزماً وتصميماً. فمن الصعوبة بمكان التخلي عما عهدناه. لا همّ لدينا سوى خوض الحرب فنحن لسنا ممن يزجي وقت الفراغ بضروب التسلية والانغماس في الملذات. ما عسانا نفعل إن عدلنا عن مهمتنا هذه؟ أين نضع آمالنا إن عدلنا عن أملنا في هزيمتهم؟

بعدما عبّر الأمير عن فائق احترامه انتقل للاعتراض وهو ينتقي كلماته: «ولكن أنظر إلىٰ ما آلت إليه البلاد. فهي خرِبةٌ ومرهقة ومسحوقة. انظر إلىٰ رعاياك. إنهم محبطون وفي حيرة من أمرهم. انظر إلىٰ جيوشك. فهي مرهقة ومريضة... انظر إلىٰ جيادك فهي مهملة ومنهارة. الماء قليل والغذاء لا يكفي، قواعد التموين بعيدة وقد عزّت علينا مقدرات الحياة. كل مؤوناتنا مصدرها مصر وهي معرّضة للأخطار المهلكة المحدقة بها في الصحراء. وقد تُقرّر فرق الجند المحتشدة أن تتفرّق فلا يبقى لشرحك المستفيض للوضع أي أثر يُذكر إن توقف التموين وسُدّت الطرقات، والأغنياء يشكون الجوع والفقراء يشكون الفقر المدقع والعوز بينما التبن أثمن من الذهب والشعير مفقود مهما دفع فيه من ثمن. فإن لم يحظوا بهدنتهم التي يطالبون بها لا بد أنهم سيكرسون طاقاتهم لتقوية وتمكين مواقعهم. سيجابهون الموت ببسالة في سبيل تحقيق أهدافهم. سيرفضون الخضوع للإهانة حبّاً بإيمانهم. وأفضل ما يمكن لك تذكّره هو الآية التي أوحى الله بها: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سورة الأنفال: 61].

أما الاستشهاد بالقرآن الكريم أمام صلاح الدِّين فهو بمثابة اللجوء إلىٰ الملاذ الأخير. فمهما كانت لباقة الأمراء في تقديم احترامهم لسيّدهم ووضع الطاعة له، هم أيضاً استنفدوا ذرائعهم كلها. لم يعد لديهم ما يعطون. ومهما

نقل سيدهم عن مرض ريتشارد فالرجل لا مثيل له: «لم نسمع منذ ابتداء العالم عن فارس مثله يتمتع بهذا المقدار من البسالة والخبرة في القتال». هكذا علّق أحد الأمراء وتابع: «لا نجد له منافساً في أي من الفنون القتالية فهو أول من يهاجم وآخر من ينسحب. بذلنا كل جهدنا لأسره فلم نبلغ منه مبلغاً فلا أحد قادر على الهروب من سيفه. هجومه مروع. ومبارزته مهلكة، وأعماله خارقة».

فاجأ صلاح الدِّين الحضور عندها باعترافه بمخاوفه. ريتشارد نفسه لم يكن يخيفه ولكنه قال ملتفتاً إلىٰ بهاء الدين، كاتبه، قائلاً: «أخافُ أن أُصالح، وما أدري أي شيءٍ يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد. فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم. وترى كل واحدٍ من هؤلاء الجماعة (قصد أولاده وأقاربه وعسكره) قد قعد في رأسه تلّه ـ يعني حصنه ـ وقال: لا أنزل، ويهلك المسلمون»[1].

مع ذلك وفي الأيام التالية اتسمت أعمال ريتشارد فعلاً بالكثير من الإنسانية. فقد بذل جهده لإخفاء استيائه من صلاح الدِّين وأرسل بالمقابل بطلب الثلج والفاكهة من السلطان خصوصاً فاكهة الدرّاق والإجاص مع الثلج، إذ إن برش الثلج كان معروفاً آنذاك، وقد كانت هذه الفاكهة المفضلة لديه. استجاب صلاح الدِّين لهذا الطلب لأسباب عسكرية راسخة. وعلم من الفاكهاني لديه أن الصليبيين يركزون جهودهم على إصلاح تحصينات القلعة مهملين جدران المدينة التي لحقها الضرر من جراء الهجمات العسكرية المتتالية، وأن الكونت «هنري دو شامباني» لم ينجح في إقناع الفرنسيين بالمشاركة في هذا المجهود، وأن عدد الفرسان الذين ما زالوا معافين في المدينة يبلغ عددهم الثلاثمئة فارس. تم عندها إرسال قوة مسلمة إلىٰ يافا للتأكد من صحة هذا التقرير من خلال استدراج المدافعين خارج المدينة لتعدادهم. وقد

(1) ابن شدّاد، ص 235.

تم فعلاً إحصاء ثلاثمئة فارس شجاع خرجوا للدفاع عن كرامتهم، فقد كان معظمهم يمتطون البغال! فرسان أغرار يمتطون بغالاً؟ لقد آل الوضع فعلاً لهذا.

بعدها وفي مقابلة رسمية ثانية لأبي بكر مع الملك جدد فيها ريتشارد نداءه الموجه لأخ صلاح الدِّين للدخول في مفاوضات جدّية. فقد كان يثق بـ «الملك العادل» ويحترمه، وكان قد التقى به أكثر من مرة في الماضي، ويعتبره حكيماً ومعتدلاً. قال لأبي بكر: أتوسل إلى أخي «الملك العادل» أن ينظر في الوسائل التي يمكن استعمالها لجعل السلطان يدخل في السلم. أطلب منه أن يمنحني مدينة عسقلان. سأرحل عن مكاني هذا تاركاً ورائي فرقة صغيرة واحدة فقط. فيقوم السلطان بعد ذلك بالاستيلاء على باقي الأراضي التي هي في أيدي الفرنسيين. مطلبي الوحيد هو الاحتفاظ بالموقع الذي أشغله مقابل الفرنسيين. إن لم يعدل السلطان عن مطامعه في عسقلان فليدفع لي «العادل» تعويضاً عن المبالغ التي تكبدتها في إصلاح التحصينات».

ظاهراً بدا هذا الموقف مطابقاً لموقف ريتشارد السابق. ومع ذلك ظلت الكلمات التي تضمّنها القرآن تراود صلاح الدِّين: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سورة الأنفال: 61].

وكذلك عاودته كلمات الأمراء في مجلسه: «إن عقدت سلماً يعود المزارعون والسكان لأراضيهم. المحاصيل الزراعية والفاكهة ستكثر في زمن الهدنة. والجيوش ستجدد تجهيزاتها وستستريح. فإن عادت الحرب عدنا لها وجهّزنا لها أفضل الوسائل التي لا نملكها الآن بسبب العجز والإرهاق والديون. هذا لا يعني ترك الجهاد في سبيل الله. إنها فقط وسيلة لزيادة فعاليتنا وقدراتنا وفرص نجاحنا. لن يبقى الفرنجة طويلاً محافظين على أيمانهم كما أنهم لن يلتزموا بالمعاهدات المبرمة».

«من أجل ذلك يا مولاي أبرم اتفاق هدنة معهم كي يتفرقوا ويتشتتوا وهم

يعانون من الضربات التي تكبّدوها حتى لا يبقى أحد في فلسطين قادراً على مقاومتنا أَو الوقوف ندّاً لنا».

أدّى هذا الحثّ إلىٰ خروج صلاح الدِّين من الجمود الذي تملكه، وبدأ الآن يرى بوضوح التحول الذي طرأ على موقف ريتشارد بشأن الحفاظ على عسقلان سابقاً. أرسل السلطان لأخيه تصريح ريتشارد مع الرسالة الملحّة التالية: «إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم، فإنّ العسكر قد ضجر من ملازمته البيطار والنفقات قد نفدت»[1].

عندما دخل «العادل» البلاط الملكي وقع نظره على «ريتشارد» مختلف تماماً. كانت حال الملك قد ساءت لدرجة أصبح ريتشارد نفسه قلقاً حول إمكان معافاته مجدداً. زد على ذلك أنه لم يعد لديه أي وهم فيما يتعلّق بجنوده. فقد فقدوا قدرتهم على القتال. لم يعد بالإمكان تعبئتهم من أجل قضية مشتركة. حافزهم الوحيد أصبح المال. وكقائد جيّد كان يعلم تماماً أن المال وحده حافز ضعيف. لم يستطع الملك أن يتظاهر بالشجاعة وهو على فراشه. ما كان مستطيعاً الوقوف على قدميه؛ مما جعله يتكلم كلاماً فلسفياً نابعاً من القلب كمن حسم قدره في موته أَو فيما تبقى له من حياة؛ فقال: «آن الأوان للبحر أن يغيب وللأمواج أن ترتفع فإن قبلت الهدنة ومكّنتني من الرحيل كما هي أمنيتي رحلت وإن أردت الحرب وعاديتني، سأنصب فسطاطي وأثبت إقامتي ههنا. الطرفان منهكان. لقد تخليت عن القدس وإني الآن أتخلى عن عسقلان. إن حشود الجيوش المعادية من كل حدب وصوب لن تخدعني لأني أعلم أنها ستتفرق عند حلول فصل الشتاء. إن استمرارنا في صراعنا التعيس مؤداه الدمار لكلينا. فاستجب لأمنيتي واكسب صداقتي واقبل فائق احترامي ووقّع معي معاهدة ودعني أرحل».

(1) ابن شدّاد، ص 232.

وعندما انتقل الرجلان لمناقشة التفاصيل تخلى ريتشارد عن عسقلان وعن التعويض المالي الذي طلبه مقابل إعادته إعمار المدينة. فبلغا أخيراً النقطة التي يمكن عندها التوصل لاتفاق.

قام بعدها كتّاب صلاح الدِّين في «الرّملة» بخط هذا الاتفاق على ورق. وتم الاتفاق على تدمير عسقلان بمجهود مشترك من المهندسين المسيحيين والمسلمين على أن لا تتم إعادة بنائها قبل ثلاث سنوات، وعلى أنه يسمح لمن يستولي على المدينة بعد ثلاث سنوات أن يحصنها. تظل يافا بمقتضى هذا الاتفاق في أيدي الصليبيين باستثناء القلاع في الناحية الشرقية أي «رملة، واللد، ويبنى، ومجدل يابا». أما المدن الساحلية: «قيسارية، وأرسوف، وحيفا، وعكّا، وصور فتظل أيضاً في أيدي الصليبيين مع البلدات الملحقة بها باستثناء قلاع الناصرة وصفورية على طريق «بحر الخليل». تم أيضاً الاتفاق على حرية التنقل وحرية التجارة للفرنكيين والعرب على حدّ سواء في الأراضي التابعة للفريق الآخر. ويسمح للحجاج المسيحيين بزيارة الضريح المقدس في القدس من دون عراقيل أَو أي مقابل مادي.

أرسل صلاح الدِّين هذه البنود إلىٰ ريتشارد مع رسالة شارحة مُلَغَّزة (مليئة بالألغاز) يقول فيها: «هذه هي الحدود الثابتة للمنطقة العائدة لك. إن قبلت السلام على هذه الأُسس فليكن. سأصافحك مقابل وعودنا. فليرسل الملك إلىٰ السلطان رجلاً مفوضاً بأداء القسم باسمه. وليحصل ذلك نهار بعد غد، وإلاَّ اعتبرنا أنك تراوغ لكسب الوقت واعتبرنا عندها المفاوضات لاغية».

عندما دخل مبعوثو السلطان على الملك، كان ريتشارد مصاباً بالدوار ومحموماً. قرأ له السفراءُ بوقارٍ نصَّ المعاهدة. فإذا به يتساءل بعزم عن بند التعويض عن مصاريفه في عسقلان حتى تدخل مستشاروه بهدوء ليذكروه أنه كان قد عدل عن هذا المطلب منذ بضعة أيام فقال بوهَنٍ، وهو يستلقي على سريره: «سأفي بوعدي إن كنت قد سبق ووعدت بذلك. قولوا للسلطان أن

المعاهدة جيّدة وأني أقبلها وأني أثق بكرمه وأني أعلم تماماً أنه إذا ما منّ علي بمنحة إضافية فهذا من فضله الذي سأدين له به». وعندما همّوا بتسليمه المعاهدة استدار رافضاً تسلمها وهمس التالي: «لا أملك القوة الكافية لقراءتها ولكني أعلن بشكل قاطع أني سأعقد الصلح». ثم استدار نحوهم على مَهَلٍ وقال: «فلنتصافح».